لحظة حب

الدكتور عادل صادق
أخصائى الأمراض النفسية والعصبية

أدركت ما هو الحب.. هو دفعة القلب العنيفة فى لحظة مباغتة تستولى على روح الإنسان فيصبح عابدًا.. معبودًا.. غازيًا.. خاضعًا.. منتصرًا مستسلمًا.

obeikandl.com

نـرى الله فـى ردود أفعالنا عند مواجهة الخطـر عندها يلهمنا الله الصـواب فنبتعد عمـا يؤذينا أو يضر بنا.. نـرى الله فى لحظة قصيرة ربمـا أقل من الثانية.. تتحول إلى فيصل بين الحياة والموت.. ونردد من أعماقنا.. فى إيمان شديد.. سبحان الله.

فى حياة الدكتور عادل صادق أسـتاذ الطب النفسى والعصبى بكلية طب عين شمس حادثة وقعت له وهو فى سن العاشرة كان لها أبعد الأثر فى إعادة اكتشـاف نفسـه من جديد وبعثت لديه إيمانا من نوع خاص ألقى بظلاله على عقله بعد أن كان يؤمن بأحاسيسه ومشاعره فقط!

يتذكرها فيقول.. كعادة أهل الريف أو الصعيد تقوم الأسر المصرية فى إجازة المدارس باصطحاب أبنائهم إلى قراهم مسـقط رأسهم ليقضوا أوقاتًا جميلة مع الجد والجدة وأولاد العم والخالة.

وذهبت إلى بلدتى بنى سويف مع أسرتى حيث قريتنا «بنى هارون» التـى تبعد ٢ كيلو عن مدينة بنى سـويف.. كانت متعتى الوحيدة فى تلك الإجازة هى الذهاب إلى مدينة بنى سـويف حيث يوجد بها العديد من دور السـينما.. وعدد من المقاهى حيث أقضى بها الساعات فى لهو وأعود إلى قريتى «بنى هارون».

لم يكن هناك وسيلة تصل بين مدينة بنى سويف وبلدتى إلا الطريق السـريع الذى يمتد مـن الجيزة حتى أسـوان وكان موازيًا لهذا الطريق ترعـة الإبراهيمية ويبلغ عرضها ثلث عرض النيـل.. وموازيًا لها أيضًا طريق السكك الحديدية، والتى على قضبانها لا تتوقف ليل نهار حركة القطارات السـريعة ذهابًا وايابًا من الجيزة لأسـوان. كانت هوايتى أن

أتجاهل الطريق السريع فى الذهاب والعودة وأسير على قضبان السكك الحديدية.. من مدينة بنى سويف وبعد ٢ كيلو أصل إلى كوبرى أقيم على ترعة الإبراهيمية يسير عليه قطار قديم بطىء يربط بين مدينة بنى سويف والقرى التى تقع على يمين الطريق السريع ومن بينها قريتى «بنى هارون» – وهى أول قرية تصادفه فى طريقه – كان هذا الكوبرى المقام ضيقًا للغاية لا يتسع إلا لمرور هذا القطار بالكاد..

كان عادل صادق يجد متعة فى السير على القواطع الخشبية التى وضعت بالعرض على الكوبرى والمثبت فوقها قضبان هذا القطار القديم.. وكان يستطيع أن يرى ترعة الإبراهيمية من بين فتحات تلك القواطع الخشبية.. كان إحساسه بهذه المتعة يحجب عن ذهن الصبى وعن عقله وفطنته أنه معرض للخطر.. إذا ما جاء القطار أثناء سيره على القضبان فى طريقه إلى قريته.. فلن يكون له مخرج إلا القفز فى الترعة – إذا ما فاجأه القطار – والموت غرقًا فهو لا يجيد العوم.

لم يفكر الصبى الصغير فى تلك المخاطر أثناء ذهابه وإيابه على ذلك الكوبرى.. حتى كان ذلك اليوم وهو فى طريق عودته من مدينة بنى سويف.. شىء ما ابتلع تفكيره واستغرقه.. ظل واستمر فى سيره عدة خطوات من الكوبرى المنشود ولكنه تجاوزه واستمر فى سيره عدة خطوات بعد الكوبرى وفجأة وصل إلى سمعه صفارة القطار استدار ليجد القطار يندفع بعجلاته على الكوبرى.. وإذا به يتخيل حجم الكارثة التى كانت ستحل به من ثوان.. الموت المحقق لا جدال فى ذلك.. إما الموت غرقًا أو اصطدام القطار به إذا سار على هذا الكوبرى خطوة واحدة.

يقــول الدكتــور صادق عن هذا الحدث (كأن نقطــة مكثفة من الإيمان تسقط على عقلى.. أدركت أن هناك فرقا بين العقل والقلب..فالعقل هو الرؤيا.. هو الاكتشــاف.. هو الفهم.. فمن الذى جعلنى لا أسير فى ذلك الحين على الكوبرى .. هو «الله»).

وتمر الأيام.. وتتحول إلى سنوات تضاف إلى عمر الصبى عادل صادق فيصبح فى سن الثانية عشرة وتتفتح داخل النفس مشاعر من نوع آخر.. مــع تدفق صوت أم كلثوم قيثارة الحب وتــردد أغانيها تبعث فى قلب الصغير دويًا لايدرك معناه.. ولكنه يحسه.. يشعر به.. كان عادل يشاهد أفلام الحب الرومانســية وعند مشــاهدته لهذه الأفلام تتراقص مشاعره ويتســلل إليه إحساس ما لا يســتوعبه وأيضا عند قراءته قصص أرسين لوبين والحكايات الرومانســية بينه وبين بطــلات الرواية ولكن كان لا يجد تفســير حتى رآها فى شرفة مقابلة لمنزله.. حيث كان يعيش عادل صادق فى حى المنيرة بشــوارعها الضيقة وبيوتهــا المتلاصقة.. كان يفر دائمًا من الوقوف بشرفة منزله.. فلا شىء تلذ له رؤيته.. حتى كان هذا اليــوم من أيام فصل الصيف والشــمس تكاد تتوارى خلف الأفق والهواء يبدأ فى نشــر نســماته فترفرف فى الخلاء.. خرج عــادل بالصدفة إلى شــرفة منزله ورفع وجهه إلى أعلى وإذا بها أمامه.. فتاة فى العشــرين من عمرهــا تقريبًا.. فى جمال البدر وقت اكتماله، ظلت نظراته تلاحق هذا الجمال.. تســللت الكلمة على لسانه.. قال لها.. أحبك.. اندهشت الفتاة.. دق قلبه بعنف.. ردد بصوت خافت.. أحبك.. ابتســمت فقالها مــرة ثالثــة أحبك فضحكت واختفــت .. لم يرها بعد ذلــك.. ولكنه..

أدرك فى سـن الثانية عشرة.. ما هو الحب.. ما هو سر الإحساس الذى يجتاحه عندما يسـمع أم كلثوم تشدو وسر المشاعر التى تتحرك بداخله عند قراءته القصص الرومانسية.. أدرك أن الحب.. دفعة القلب العنيفة فى لحظة مباغتة تستولى على روحك.. فتصبح لها عابدًا معبودًا.. غازيًا خاضعًا.. منتصرًا مستسـلمًا.. ويلعب القدر دوره بجدارة.. فيلون أيامنا كما يريد هو.. وكما يحلو له أن يكون..

ويتخـرج عادل صادق فى سـن الثانية والعشـرين فـى كلية الطب بتقديـر مرتفع ويقرر التخصص فى الأمـراض الباطنة والتى كانت دائمًا تستهويه.. حتى سقط صديق حميم له بين براثن المرض النفسى.. وقتها عـرف كم يتعذب المريض النفسـى.. وكم هى معقدة ومتشـابكة النفس البشـرية.. واختار من جديد طريق الطب النفسـى ليكون مسلكه وترك الأمراض الباطنة..

ويأتـى المنعطف الكبير فى حياة الدكتور عادل صادق ونقطة التحول المهمة.. عندما حصل على الدكتوراه وسافر إلى إنجلترا واستطاع الحصول على شـهادتى دبلوم الطب النفسى وزمالة الكلية الملكية.. وتم ترشيحه لوظيفة مستشـار بإحدى المستشـفيات الجامعية هنـاك.. واتخذ قراره بالاسـتقالة كمدرس جامعى بمصر والإقامة بشـكل دائم بلندن.. وكتب اسـتقالته ليرسـلها فى الصباح إلى مصر.. ودخل إلى سريره لينام مرتاح البال راضى النفـس.. وإذا بجرس التليفون يدق بجواره.. ويأتى صوت مـردد أن والده أصيب بشـلل.. ترك كل نجاحاته ومسـتقبله العريض بلنـدن وعاد إلى القاهرة.. إلى أبيه الذى يحتاجه بالفعل. وبعد ١٥ عاما

مـات والده..أصيب الدكتور عادل باكتئاب شـديد.. على الرغم من أن والده قعيد فى السـبعين من عمره وكان هو المسؤول عن رعايته.. إلا إنه كما يقول.. شـعر بفقدان السـند فى الحياة.. فقد.. الأمان والحماية.. فالأم هى مصدر الحنان.. أما الأب.. فهو مصدر الحياة ذاتها.

□□□

obeikandl.com